ندّى يتلألأ ما بين الأوكار التى تجنح إليها طيور الخراب ، فقعدت أتأمل ما كان عليه ربُّ هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخنى عليه الدهر فأخذتنى لذلك عِبْرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الأبيات .

أيها الشامت المعيِّرُ بالدهـــــر أأنت المبرَّأُ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيّـــــام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنونَ خلّدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى خيرُ الملوك أنوشِرْ وانُ أم أين قبلَه سابور
و بنو الأصفر الكرامُ ملوكُ الرو م لم يبق منهُمُ مذكور

وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير فى الخاطر لا يبرَح منه العُمُر ، وكان رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ[1] من دار السلام ، وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة فى آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنّه وكرمه ، ونحن قد جُزنا موضعاً يعرف بالنَهْروان[2] وصرنا على مُطَلّ من الزَّوْراء أم البُلْدان .

مُقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العَتَمة وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسبِّحين بحمد الله والمقدِّسين له نغماتُ تؤوِّبها معهم أرجاء المدينـة ، وتعذر المسيْر على مركَبنا تجاه باب البَصْرة[3] أو كاد ،

(١) ياقوت ٤ : ٤٤٧ (٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦
(٣) هو باب من أبواب بغداد

لازدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان ، وهى مطليّة بأبهى الأصباغ والألوان . مرصّعة بأنوار القناديل الحسان . حتى كأنّ دِجْلة فى الزَّوْراء . أشبهُ بالمَجَرّة فى كبد السماء . ثم تقدّم بنا المركب حتى وقف بمقرُبة من الجسر ، وعلى مطَلّ من قصور الخلافة التى كانت تتلألأ بضوء باهر ،[1] فركبت البرّ فى الموضع المعروف بجزيرة العباس ،[2] وقد غصّ بجموع من الناس وقد لبسوا الطيالس السود تشبُّهاً بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد شِعارَ الخلافة حزناً على شهدائهم من أهل البيت ونعياً على بنى أميّة فى قتلهم ، وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدلَ العمائم قلانسَ طِوالا مصنوعة من القَصَب والورق ملبّسةً بالسواد أيضاً ، وبدلَ الدروع دُرّاعاتٍ مكتوباً عليها بين كَتِفى الرجل «فَسَيَكْفيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليم» ، أخبرنى[3] بعض من لقيتُه فى تلك الليلة أنّ أبا جعفر هو الذى أحبّ أن تتزيّا حَوْزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

ولما جُلْت فى المدينة أخذت عن قطيعة[4] أبى عيسى الهاشمى الى مَحلّة يقال لها الميدان[5] ، ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبى جعفر ،[6] فوجدته كأحسن ما يكون وأحفلِه من الشوارع ، وله السيادة عليها بأمرين ، الأولُ اتساعُه إلى أربعين ذراعا[7] وإنْ كان يشاركه فيه غيرُه ، والثانى طولُه من دار الخلافة إلى محلّة باب الشام[8] على استقامة ليس فى الامكان أصحُّ منها ، فلما صرت فيه استقبلتُ فى دور الخلافة زينةً

(١) الاغانى ٤ : ١٨٩ (٢) فى المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع (٣) ابن الاثير ٥ : ٢٤٥ والاغانى ٥ : ٩٥
(٤) ذكرها ياقوت (٥) الاغانى ٢٠ : ٦٦ (٦) ابن خلكان ١ : ٣٠
(٧) ابن الاثير ٥ وابن خلدون ١ (٨) ذكرها ابن طباطبا وابن الاثير

كضوء الشمس ، قد اتُّخِذَتْ على القبة الخضراء [١] التى رفعها ابو جعفر إلى عُلوٍ يزيد على ثمانين ذراعا ليُشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين ، كما أنه عُنِىَ بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سَعَة ملكه والشهادةُ باقتداره على عظائم الاعمال ، فكانت تظهر زينتها فى تلك الليلة وهى مرتفعة فى الفضاء كانها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام .

ثم إنى أقبلتُ فى صدر هذا الشارع على مسجدٍ جامع عليه ازدحام فمالت إليه ، برجال متمنطقين بالسيوف يَرْجعون الناس وَيحملون ممرا بين جموعهم ، ووراءهم رجلٌ طويل [٢] أسمرُ نحيف خفيف العارضين مُمَرَّق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخَزِّ وقَلَنْسُوَة مطوَّقة بوبر [٣] أسود من الأوبار الغالية الثمن ، وفى وجهه مهابةُ الملوك وجلالتهم ، فعرَفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل عليه حاشيتُه ، إذ الشمسُ لا تخفى وان سُتِرت ، ثم لم أزل أتبعَه بالعين حتى توارى بين الجموع وركب بغلة [٤] عليها حِلْيةٌ خفيفة من الفضة ، وكان لجامها فى يد حاجب من حُجّاب الخليفة

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له الحجاجُ ابنُ أرطاة [٥] ، وعلى مقربة منه قُرّاءٌ سبعة يتلون الآياتِ من القرآن إلى مائة آية من مواضعَ متفرقة وسور مختلفة ، فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت إليه رُقَعٌ فى مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضَى من المرهَف ، وحدَّثْ

---

(١) المسعودى والقزوينى (٢) العقد الفريد (٣) ابن عون وذكر ابن جبير انه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر (٤) ابن خلدون (٥) ذكر فى العقد الفريد أنه ولى القضاء لابى جعفر

عن البحر فى بُعد الغَوْر رقُربِ المغترَف ، وعهدى بمن لَقيته من الخطباء أنى ما سمعتهم إلاّ تمنيْت أن يسكتوا مخافةَ أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيهَ الذى كان يُواتيه الكلام ويتابعه ، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقعة اندفع فى تفسير كتاب الله وَايراد الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى أن أخذ فى سَرْد الآى المقروآت فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى إلى آخر آية وهى قوله تعالى « فى بيُوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُه[1] الآيةَ ، فنمّق خطبة يذكّر بها المؤمنين قافيةُ سجعاتها الالفُ اللينة واللام تَرْداداً لموقف الآية « الآصال » حتى أرسلتِ العيون لخشية الله عبراتها[2] .

ولم أزل فى المسجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعد العِشاء الآخِرَة ، فخرجت التمس موضعا أبيت فيه بقيةَ الليل لعلى أجدُ فى النوم راحةً تعوّض علىّ بعضَ ما أخذ منى السفر ، فأُرْشِدت إلى خانٍ لطيف ينزله الغرباء من أهل التجّارات وغيرِهم ، فلما كان الصباحُ بَكَرت إلى استاذى أبى يوسف ، منزلهُ على نهر عيسى[3] فى قنطرة الزياتين[4] بمقربة من دور الخلافة ، فتلقانى بالبشاشة والايناس وأبى إلاّ ضياقى عنده فى جَناح أفرده لى من داره ، وهو يؤملنى بلوغَ ما أرتجيه من خدمة الدولة ، إذ لا يعدَم قومُنا محلا فى مراتبها الوزارةُ فى يد خالد بن برمك أميرِنا . إنى إلى هذا اليوم أتخرّج فى الفقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندُر مثلهُ فى صدور الرجال .

---

(١) سورة النور (٢) من رحلة ابن جبير (٣) ابن حوقل ١٦٥ ويقول المسعودى ١ : ٤٧ انه يأخذ من الفرات وفى ابن خلكان ١ : ٧٤٠ انه يأتى بغداد من جهة الانبار و ١ : ١٠١ انه بجوار قنطرة الزياتين (٤) الاغانى ٣ : ١٨٢ وابن خلكان ١ : ٢٨٣

ذكر شيء من محاسن الزَّوْراء

ولقد أكبرتُ من الزَّوْراء رواجَ سوقها بالتجارة واشتباكَ أحيائها بالعمارة فى مدة عشر سنين حتى جمعت من اسباب العمران ما لا يكون فى مدينة بنيت من قديم الزمان ، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الاقليم على خير ما تكون مدينة ، وفيها ما تشتهى الأنفسُ وتلَذُّ الأعين ، وأسواقها فى نهاية من الاحتفال، قد جمعت بالكَرْج أخلاطا من التجّار[1] والصُنّاع ، إلاّ سوقَ الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرسِ ، وقد بلغوا من الاجادة فى صناعتهم الغايةَ بحيث يرصّعون الزجاجَ بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسَّم ، ويصنعون للملوك أقداحا[2] تقيّد الأبصار حسنا وإشراقا ، ويتخذون على الجامات صورا يُحكمون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير[3] ومن فوقها عُقاب ينقضّ عليها ، وهى تهوى فى الفضاء للتخلص منه ، لكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطَرف . وإلى طَرَف هذه السوق مما يلى سُوَيقة غالب[4] جماعةٌ من البنائين يبنون الدكاكين لارباب التجارة باشارة من السلطان الذى أمر بتحويل الأسواق إلى الكَرْخ[5] ليبعدَ أخلاطَ الناس عن جواره .

أما دور المدينة فانها متّخَذة على هندسة الفرس وصنائعهم ،[6] ومِثالُ

---

(١) الاغانى ٩ : ٣٣ و١٨ : ٦ (٢) الاغانى ٤ : ١٨٩ (٣) فى الحصرى ١ : ٣٥ هذا الشعر لابى نواس .

تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بانواع التصاوير فارس

الاغانى ٣ . ٢٧ (٤) ذكره ابن خلكان فى محلة الكرخ ١ : ٢٤ فى ابن الاثير ٦ : ٩٩ ان بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم ان العمارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ فى جوف بغداد (٥) المقدمة ٣١٣

ما بنت الروم فى الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد ، وهى مجلَّلة كِلْسا ومرفوعة إلى طبقتين [١] ومبنىٌّ بالآجُر ما ارتفع منها عن الأرض ، و بالحجر ما يماسُّها دفعاً للماء فى أوان السيل [٢] أن يبلغَ الطينَ ويتمكنَ منه ، ومنهم من يقوّى الآجرَ بالقَصْباء والحَلْفاء ويغمسه بالجِص [٣] حتى يصير يابساً وتكون له رنة كرنة الحجر الصلد إذا صلصل . وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وانما تُطِلّ نوافذها على الشوارع [٤] بحيث اذا ارتفع المارّ على حجر أو على دابة تيسر له أن ينظر من بداخل البيت ، [٥] أما دور المتموّلين من أهل اليسار فانها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد ، وهى مقاصير الحَرَم وحُجُراتُ الخدم ومجالس السلام . وفى ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون رَوْحاً وريحاناً واستراحاً للنفس ، وعلى جدرانها وسقوفها نقوشٌ فى رسم ملوّن أو فُسَيْفِساء من ذهب ، وعلى دائر الأبواب والقَمَرِيّاتِ و بَرّاداتِ [٦] الدور كتابةٌ يتخذونها من الزجاج [٧] الملون ويحوّطونها بخشب أسود من الآبَنوس وغيره ، ثم يعلقون عليها رسوماً من النُحاس تمثل غصوناً وثماراً وأزهاراً وأشكالا فيها كلُّ غريبة من الابداع ، فتمتلئ العين ارتياحاً من النظر إلى إشراقها . وانى ليعجبنى من جمال مبانيهم ما يتأنقون فى زينته من الخارج أيضا ، فإن القِباب التى يرفعونها من فوق السطوح على عُمُد قد دقّت أمثالَ الرماح لَيُخَيَّل للرائى أنها لا تستند على شىء . وكأنما هى معلّقة فى الهواء .

---

(١) يستدل على ذلك من الاغانى ٢ : ٧٣ و ٣ : ٣١ (٢) ذكر الاغانى ٩ : ١٤٤ وقوع سيل ببغداد (٣) ابن خلدون ٣ : ١٩٧ (٤) الاغانى ١٧ : ٤٩ (٥) الاغانى ٥ : ٣٨ (٦) الاغانى ١٧ : ١٢٩ (٧) القزوينى ١٢٧

ولما كان الحر يشتد وَهْجه فى الزَّوْراء ويفتقر أهلُها إلى رطوبة الماء افتقارَ النفس إلى الهواء قلّ أن يخلوَ سوق من أسواقهم أو بَنِيَّةٌ من مبانيهم من سِقاية يجرى بها ماء دِجلة ، [١] ولذلك لا يسير فيها الرجل إلاّ محفوفا بالشجر المزهر والرياحين [٢] التى يتغنى بوصفها الشعراء . وهذا دليل على أن الزَّوْراء كلّها ماء ونماء . ولأهلها فى اقامة الأحواض عناية تامة فيرفعون عليها مُمَدا مزخرفة من الرُخام ويعقدون من فوقها قِبابا منقوشة بآيات من الذهب [٣] وما بينها النقوش الظريفة والرسوم التى تَقَرُّ بها العيون. فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزينتها على سبيل التَرَف والترفّه ، وإذا اشتد عليهم الحر اتخذوا أسرابا تحت الارض وأقاموا فيها بالنهار ليكسِروا الحر كما يقولون [٤] .

ولقد عظمت عناية أبى جعفر بهذه المدينة حتى أنهُ أنفق نحوا من أربعة آلاف ألف دينار فى بناء السورين اللذين يحوّطانها والمسجدِ الجامع ودور الخلافة والمجالس التى عقدها فوق أبواب السور الخارجىّ من طاقاتها المعقودة ، وهى أربعة أولُها بابُ خُراسان ويسمى بابَ الدولة لاقبال الدولة العباسية من خُراسان . والثانى بابُ الكوفة وهو تِلقاء الكوفة . والثالث بابُ الشام وهو من ناحية الغرب . والرابع باب البَصْرة وهو بمقرُبة من دِجلة . وقد حمل إليها أبوابَها من واسط والشام [٥] والكوفة على بعد الشُقة والمَشَقّة . واتخذ الأبواب الداخلة مُزْوَرّة عن الأبواب الخارجة [٦] ولذلك

---

(١) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والاغانى والاتليدى (٢) ياقوت ١ : ٦٨٧
(٣) الاتليدى ٢٢٦ (٤) من ابن خلكان (٥) ابن الاثير ٥ : ٢٣١
(٦) تقويم البلدان ٣٠٣

سميت المدينةُ بالزَّوْراء .

ثم إنّ تناهىَ جمالها بما شاد فيها الأمراء من المبانى التى تقف عندها الغايةُ فى الفخامة والاشراق ، ولا سيما ما كان من المساجد المزخرَفة فانها لَكثيرة [١] فى الزَّوْراء ، أتيتُ منها لى زيارة مسجد فى قنطرة الصَّراة [٢] ومسجدٍ بناه عبد الله بن حرب فى الموضع [٣] المعروف بالحربية . ومسجدٍ أقامه أمير من آل قَحْطبة فى شارع المحرم ، [٤] وآخر بنته الخيزُران زوج ولىّ العهد فى الخيزُرانية ، [٥] وهو فائق الحسن وفيه أكثرُ من ثلثمائة قنديل من الفضة والذهب ، وصحنُه من حجارة سود شديدةِ البصيص تصف الأشخاص كالمرآة ، وعلى حيطانه صور تفاحاتٍ وثمار وغصون تخيِّل للوافد على المسجد أنه بين شجر زاه مزهر . فى روض باه باهر . ورأيت العَمَلة قد حاكَوْا فيها رسوم الأعاجم على انسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم الرائى أنها بُسُط حُمِلت من طبَرستان ، ولا فرقَ بينها إلاّ فرقُ ما بين الصوف والحجر ، وليس فى مساجد الزَّوْراء مثلُه فى الزينة إلاّ مسجد بناه أبو جعفرا فى شارع دُجَيْل [٦] مما يلى باب الأنبار [٧] والمسجد الجامع الذى بجوار ذور الخلافة .

---

(١) ذكر القرمانى وغيره أنه كان ببغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام (٢) موضع ببغداد ذكره ابن الاثير ٦ : ١١٧ (٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٣ وياقوت ٤ : ٥٨٦ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ و ٣٨٨ (٤) ذكره الاغانى ٥ : ١٢٦ (٥) ذكره ابن الاثير ٦ : ١٠١ (٦) ذكره ابن خلكان ١ : ٤٩٨ (٧) ذكره ابن الاثير ٦ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ والمستطرف ١ : ٢٨٩

فى تقربى من رجال الدولة

ولقد لَقِيتُ فى الزَّوْراء جماعة من الأمراء المقدَّمين فى الدولة غير أنى انقطعت إلى خدمة ملوكنا البرامكةِ وملازمةِ بابهم فى البكور والرواح ، إذ كانوا أصحابَ فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمّنى وإياهم فى أوثق جبال الانس والائتلاف . وتقربت بكفالتهم إلى مَعْن بن زائدة الشَّيْبانى ورَوْح بن حاتم المهلَّبى وهما أعظمُ رجال الدولة بعدهم ، وكنت إلى آل المهلّب أكثر منى تقربا إلى شَيْبان [1] وان كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت ، إلاّ أن مَعْنًا كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمُهم فى مراتب الدولة وهم أغرابٌ عن العرب ، وذلك لم يكن فى آل المهلَّب فانهم كانوا مع البرامكة على خُلْطة ومودة واتصال .

وأقربُ الأمراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرُنا لقيامه بثِقْل الدعوة فى خُراسان من قبل أبى مسلم الخُراسانى . وهو من أولاد الملوك لم يبلُغ أحد مبلَغه فى رأيه وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله ، [2] والمنصور لا يُبرم أمرا إلاّ بمَشُورته ، ولا يركَن فى أعماله إلى أحد سواه اللهم إلاّ فى سياسته مع العَلَويين فانها كانت جارية على البغض والجور ، مع أن خالدا ميّال إليهم منذ أخذ فى الدعوة الإمامية بخُراسان ، وهى إذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا. أما المهلَّبيون فانهم من عظماء العرب ومن لهم الرأىُ المقدَّم عندهم والإمْرةُ

---

(١) يقول ابن الاثير ٦ : ٥١ ان شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦١ والمسعودى ٢ : ٢٢٢

المطاعة عليهم ، وقد كانوا هم وآلُ قَحْطَبَة من القوّاد الذين نصروا العباسيين على بنى أميّة ثم انضافوا إلى جملة أبى جعفر بعد الفُرْقة بينه و بين العلوية رغبةً عن الأئمة من أهل البيت ، فقدّمهم أبو جعفر فى المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت إليهم الوجوه وانطلقت الألسن فى مدحهم بالقصائد التى تعظُم عن أن يقال مثلها فى الخلفاء أنفسِهم كقول المغيرة بن حبناء

أمسى العباد لعمرى لاغِياثَ لهم ... إلاّ المهلّبُ بعـــد الله والمطر
هذا يذود ويحمى عن ديارهمُ ... وذا يعيش به الأنعام والشجرُ

وأما معن فانه أمير شَيْبان كلِّهم ، وقد اجتمعت فيه جميع خِلال العرب الحِسان إلاّ أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتحيّر فى نعته اللسان . وشَيْبان من بيوتات العرب فى قريش ، وهم أربعة بيوت بعد بيت بنى هاشم ، وهى بيت قيس . و بيت تميم . و بيت شيبان . و بيت اليمن . (١) وقد كان معن على مخالفة العباسيين لأول ظهور دُعاتهم وأبلى مع بنى مَرْوان بلاء حسنا ، فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل لمن يأتيه به مالا جزيلا فلم يظفَر به لأنه كان مقيما فى البادية كما يقال ، (٢) ثم إنه رجع إلى

(١) الاغانى ١٧ : ١٠٥ (٢) قد وقع لمعن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحببت أن أذكرها ههنا لنكتة فكاهية تدل على كرم العرب وأنفة نفوسهم والكلام فيها لمعن يقول كنت قد اضطررت لشدة الطلب الى أن أقيم فى الشمس حتى لوحت وجهى وخففت عارضى ولحيتى فلبست جبة صوف عريضة وركبت جملا من الجمال النقالة لأمضى الى البادية فأقيم بها فلما خرجت من باب حرب تبعنى أسود متقلدا سيفا حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيرى فأناخه وقبض على فقلت له مالك قال أنت طلبة أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن ابن زائدة فقلت ياهذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فأنى والله لأعرف بك منك قلت ان كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معى يفى بأضعاف ما بذله أمير

الهاشمية [١] متلثما ووافق يومُ وصوله قيامَ الروَاندية على الخليفة فى الأسواق ، وقد قاتلوه إلى أن ضاق به الخِناق ، فكان ممن يجد فى ذلك اليوم وسيلةً لهلاك أبى جعفر بانضمامه إلى العدو و بعد أن بدت له مقاتله ، ولكن أبت مروءتُه إلاّ أن يكون الحلمُ فى نفسه طبيعةً تجلُّه عن مطامع الأخساء ، فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبوجعفر طابت به نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الأمير مرة واحدة فأصبته بين حَرَس على رأسه وحَفَدة بين يديه ، [٢] وفى حضرته جماعة من الأدباء النُّدْمان قد خاضوا فى حديث الشِيعة فى خُراسان . وأخذوا يتناقلون خبرَها من غير نقد ولا إمعان . فضلّ عنهم سر السياسة فيها إلاّ رجلا من شَيْبان بليغ الفطنة يقال

المؤمنين لمن جاءه بى فخذه ولا تسفك دمى قال هاته فأخرجته اليه فنظر اليه ساعة وقال صدقت فيما تذكر عن ثمنه ولست قابله حتى أسألك عن شىء فان صدقتنى أطلقتك فقلت له قل قال ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرنى هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أنى قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته . أنا والله راجل ورزقى من أمير المؤمنين عشرون درهما فى الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس لتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل شىء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ثم رمى العقد فى حجرى وترك خطام البعير وانصرف فقلت ياهذا والله قد فضحتنى ولسفك دمى أهون على مما فعلت فخذ مادفعت اليك فانى عنه لغنى فضحك ثم قال أردت أن تكذبنى فى مقالى والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمناً ومضى فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يجىء به ساشاء فما عرفت له خبراً وكأن الأرض ابتلعته . ابن خلكان ٢ : ١٦٠ والأغانى ٩ : ٤٣ وعجائب المخلوقات ٣٠٩

(١) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد.

(٢) الابشيهى ٢ : ٣٠٩ والاتليدى ١٠٩

له محمد بن الحسن الشيبانى ، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خُيِّل لسامعه أنّ القرآن نزل بلغته ، [١] فكان يرى لنكية أبى مسلم رحمه الله السببَ الذى لم يفطُن له أحد من هؤلاء الجلاّس ، فانه لم يتحقق لدىّ مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لِمَا كان من سبقه إياه إلى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة فى الكُتُب التى كان يبعث بها إليه ولا لافراطه فى القتل ، وإنما نكَب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأى فيما يدبرونه لأمر أنفسهم ، حتى إذا علِم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صَمّاء تعصف ريحُها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفى نفسه أن يفتِكَ به على غِرّة ، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له إلى أبى جعفر ومما كان من استصحابه للجنود فى سيره إليه ، ولكن طلع عليه وهو بين يدى الخليفة جماعةٌ من حيث لا يدرى فاعتوَروه بالسيوف ومَنْ يعلم هذا كلَّه ولكن لا يقوله إجلالاً لأمير المؤمنين .

وأمّا ما يقولون من أنه خامل السُلالة فليس ذلك إلا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم ، على أنه لو صحّ ادعاؤُهم ما منع من أن تكون به خصال لا تُرَى فى عامة الناس ، فانك لتعلم أنه مَلَكَ خُراسان [٢] وهو ابن تِسْعَ عَشْرَةَ سنة ، وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثلِه الحكماء ، وكان ثَبْتَ الجَنان إذا جاءته الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور ، وإذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب ، [٣] وكان

---

(١) أبو الفداء ١٩٢ وابن خلكان ١ : ٦٤٧ والخميس ٢ : ٣٣٣

(٢) (ذكر) صاحب العقد الفريد ١ : ١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٩٨

أقلَّ الملوك طمعاً [١] وأبعدَهم بين الناس شهرة ، حتى كان اذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبق فى المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه ، وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجالُ عندى ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول . الاسكندر الرومى . وأرْدَشِيرُ الفارسى . وأبو مسلم الخراسانى .

لُمْعة من أخبار أبى جعفر

ومن المقرَّبين إلى أبى جعفر غير من لَقِيته من الأمراء المقدَّم ذكرُهم الربيعُ بن يونس حاجبُه ومولاه ، وهو حَظِىّ عنده ومكين لديه إذ أنه مقدَّم على الموالى ، وهم المقدَّمون فى هذه الدولة ، لبلائهم مع يزيد بن المهلَّب ، على ملوك بنى أمية بجُرْجان [٢] وما إليها من البُلْدان ولاستمرار أبى جعفر على تقديمهم فى الرياسة تحفظاً على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت ، وهو يجد عليهم أشدَّ مما يجد على بنى أمية

فتجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدّم الأغراب [٣] فى مراتب الدولة إلاّ بما هو مطبوع فى نفسه من التيقظ والسهر ، كما تجد أنه ما أبناه مدينتَه إلاّ الخوفُ من أهل الكوفة أن يُفسدوا جنده ويحملوهم على مناصرة أهل البيت ، فجمع المنجمين لذلك ولم يباشر بناءها إلاّ بعد ما أعلمه نَوْبَختُ بسلامتها من الأعداء ، ولما فشت فيها العمارة وجَمعت أخلاطَ الناس خاف قيامَ العدوّ عليه فأقفل الدروب بالليل ، [٤] وأقام عليها الحراس وحوّل

(١) أبو الفرج ٢١٦ (٢) الأغانى ٩ : ٢١ (٣) ابن الاثير ٦
(٤) الاغانى ٧ : ٣٤

الأسواق إلى جهة الكَرْخ كما تقدم حتى لا يبقى بجواره من لا يأمن ناحيتَهم ، وشرع قومُه يقولون إنّ رسول الروم أشار بذلك إليه وقد سأله لمّا وفد عليه كيف وجدتَ بلدَنا أيها الرسول ؟[١] فقال إنى رأيته أعزّ على الطالب من بيض الأنوق بيدَ أنى رأيت الغريب يطرُقه ويبيت فيه ، وربما كان فيهم العينُ والجاسوس . وهذا كلام فيه بعض المِرْية عندى لأن من أبناه الخوف مدينة حوّطها بسور بل سورين[٢] وحفَر بعدهما خندقاً بعيدَ المهوَى غنىٌّ بما فى نفسه من الخوف عن أن يخوّفه أحد كيدَ العيون ومحالهم .

ثم إنا لنجد له هذا التيقُظ فى البخل الذى ليس هو فيه عن لؤم[٣] يُغلّ يده عن الخير ، لأنه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألفُ ألف درهم ،[٤] وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات ، وإنما أمسك يده عن العطاء مخافةَ أن يقع ماله فى يد المتربصين به من المخالفين ، كما أنه أقلّ من أعْطِية الجند ليأمَن عصيانهم[٥] واستغناءهم عنه ، كأنه يعمل بالمثل السائر الذى يقول جوِّع كلبك يتبعك ،[٦] وإلاّ فانا لا نرى هباتِه إلاّ لمن هو خلْو من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب وان كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم ، وذلك لما نعلم من خروج[٧]

---

(١) ابن الاثير ٥ : ٢٣١ (٢) أبو الفرج ٢١٩ والمسعودى ٢ : ٣٨٧ (٣) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل فى أبى جعفر معروف ومتفق عليه (٤) المسعودى ٢ : ١٩٤ والمستطرف ١ : ٢٠٠ (٥) فى ابن الاثير ٦ : ٥ ان المنصور عرض جنده فى السلاح وهو لابس درعاً وبيضة (٦) الفخرى ٦٩ (٧) الاغانى ١٣ : ٩١ وفى العقد الفريد ١ : ١٢٢ أن حاجب الخليفة قال له أن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم

الشعراء فى أيامه من الحضرة إلى غير وجهة يسترفدون بها صلتَهم .

وأما دليل تخوّفه من وُلاة الأقاليم فكونه يذكى عليهم العيون ويتدارك عزلَهم من قبل أن ترسَخ فى الامارة قدمُهم ثم يستولى على مايصل إليه من أموالهم ويجعلُه فى بيت سماه بيت مال المظالم[١] حتى يقعدَهم عن القيام عليه فى ثورة أو مخالفة ، وليس ذلك حبًّا فى جمع المال وادخاره كما يزعم كثير من الناس لأنه لولا أنه بخل ناشىء عن رأى له فى السياسة ما حنق على معن حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهِّل من أمرهم ما حزُن[٢]، كما أنه لو طمِع فى حفظ هذه الأموال المغتصبة ما أوصى ابنه بردها إلى أربابها فى كلام من الوصية يقول فيه[٣] إنى لأحُضك يومَ تُدركنى الوفاة أن تدعو من أخذت ماله وتردّه عليه ، فانك ستُحْمَد بذلك إليهم ، ولكن إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب لأنى ما رأيت الوفاء طبيعة إلا فى الموالى والأغراب .

ثم إنه طمح من هذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب عليها المكوس تثقيلا على التِجار ، فوضع على الحوانيت خَراجاً[٤] لم يسبق له عهد فى الاسلام .

هذا نَزْر يسير من أخبار أبى جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذى يدعوه إلى التيقظ ، والناس يقولون إنه صالح النظر فى السياسة وربما جاريتهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره ، غير أنه حبس النفس الزكية محمدَ بن عبد الله بنِ حسن بن الحسين رضى الله عنهم وقتل أخاه ابراهيم بن

---

(١) ابن الاثير ٦ : ١١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٩ (٣) الفخرى ١٨٧ وابن الاثير ٦ : ١٢ (٤) المقريزى ١ : ١٠٣

عبد الله وكلاهما بَراء من الذنوب ، ولست أرى لأبى جعفر فيما وقع له من الظَفَر بهما على سبيل الاتفاق وجهاً تطمئن به نفسه ، لأن فشل العلو إلى هذا اليوم انما نشأ عن تفرق دُعاتهم على أغراض ، لم تجمعهم غاية واحدة فى جميع البُلْدان بل كان بعضهم منقطعاً عن بعض ، وكان كل واحد منهم منفرداً إلى نفسه فيما يطلبونه من ثأر شهدائهم المشرَّفين (عليهم صلوات الله ورضوانه) ، فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفِر بالواحد منهم بعد الآخر كما كان شأنُ الأمويين فى مقاتلتهم من قبل ، ولو أنهم جمعوا دُعاتهم الى الوَحْدة وأثاروا العراق وخُراسان والحجاز فى غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله فى اظهار الدعوة الامامية لأعاد الله إليهم الخلافة التى غلبهم عليها الأمويون ، وهم الذين عُرفت لهم الفضائل التى لا يستطيع المكابرون من أعدائهم[1] انكارَهَا ، والله يؤتى ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذى حفظها للمسلمين

وبما حدّثنى لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قولُه ما فى نفوسنا من التحسر على أهل البيت لضياع حقوقهم ، وقد كنت استزدته الحديثَ عن أخبار العرب وأيامهم فحدثنى عن فتوح الاسلام خبراً أحببت أن أسرُده

(١) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بنى أمية ان الذين حولنا لو يعلمون من علىّ ما نعلم لتفرقوا عنا الى أولاده . ابن الاثير ٥ : ١٧ وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يوماً يعطى الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قتلة الحسين بن على رضى الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له انك لا تجتمع أنت وهو فى مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيئاً . ابن الاثير ٤ : ٢٣٩

إليك فى هذا الكتاب ، وأسلُكَ فيه سبيل الاطناب ، ليكون فخراً للأعراب، باقياً إلى منتهى الأحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطقٌ بالهدى ودين الحق ليُجيرهم من الملمات التى وقعت فيها جاهليتُهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم فى الدين ، إذ لم يكن فيهم من الموحِّدين المقرِّين بالخالق المصدِّقين بالبعث الموقنين بالثواب فى الآخرة إلاّ نفر قليل ،[1] فجمع بالرسالة كلمتَهم ، ونزَع الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها تماثيلَ آلهة[2] وتركوا عبادة الأله الواجبِ الوجود ، من يَهْدِ اللهُ فهو المهتد ومن يُضْلل فلن تجدَ له وليًّا مُرشداً[3] .

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مأموراً فى بدء رسالته بأن يدعو العرب إلى الاسلام ، ثم جاءه الوحى بدعوة الناس كافةً إليه ، فلما قُبِض صلى الله عليه وسلم وهو مشكورٌ سعيُه مرفوعٌ منزلتُه انقبضت نفوس العرب و باتوا فى موقف التردد ، فمنهم من كانوا يخافون أن يدخلوا فى ولاية أحد من بعده يُطلق يدَه فى الأمر بما يشاء ، وعهدُهم قريبٌ بالجاهلية من تباين الميول والأهواء ، فلما رأَوْا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم بُعدَهم عن الأغراض النفسانية ، والتماسَهم من الخلافة السلوكَ فى سنة الله و رسوله دون شىء آخر من حاجات الدنيا إلاّ هدايةَ الناس ، اجتمعوا على كتاب الله أمةً واحدة فى دين وسياسة ، حتى غلبوا الملوك على أمرهم وابتزُّوا الأعاجمَ سلطانَهم وحازوا مُعْظم العالم فى شرق وغرب .

وإنما صال المسلمون كالسباع ، وشدُّوا على الحصون والقِلاع . وتراموْا

(١) المسعودى ١ : ٢٣٩ (٢) المقدمة ٣١١ (٣) سورة الكهف

على ممالك الخَضَر، واقتحموا المشاقَّ والغَرَر، بما حضّهم عليه الكتاب من الجهاد، ولأن المائت منهم فى ساحة الحَمَلات، شهيدٌ له فى دار الخُلْد جنات. وعدهم الله تعالى ذلك بقوله « ومن يخرجْ من بيته مُهاجراً إلى الله ورسوله ثم يُدْرِكْه الموتُ فقد وقع أجرُه على الله »، (١) فلما ندبهم أبو بكر رضى الله عنه إلى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم (٢) وَوَلَدهم وبُيوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون، وعلى وجوههم سِمات الفرح والابتهاج، (٣) كأنما النصرُ محقق فى النفوس صِرْفاً بغير مِزاج. ويقال إنّ الشيوخ الفانية قد قدِموا مع أولادِهم ليطَئوا الأرض التى وعدهم النبى صلى الله عليه وسلم، حتى اذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أنْ لِمَ أقبلتم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأنْ ليس لكم عزم ولا فيكم بقية، فقالوا قدِمنا يا خليفةَ الرسول رغبةً فى ثواب الله وحباً فى فاكهة الشام واستعذاباً لمائه الزُلال، (٤) فتفاءل منهم بالخير، وقال إن ربكم يُعطى النصرَ العزيزَ لمن يشاء. فاذا كان هذا عزمَ المَسَانّ وإقدامَهم فما الظنُّ ببسالة الفِتيان الذين هم ضرّاب السيوف، (٥) وشُرّاب الحُتوف؟ فان تنظر إلى ما تعرف لهم من الأشعار. ويُروى عنهم من الأخبار. تجدْ أنهم لا يبتغون بغير الكفاح الفَخارَ. وتستدل على أن قوّتهم فى مهاجمة الديار. أشدُّ من عدو تمنعه القلاع والأسوار.

ومما حفِظ هذه الفتوحَ للمسلمين أنّ البُلْدان التى دخلت فى حَوْزتهم لم تُبْد اشارةَ ثورة ولا أمارة فتنة، لأنها كانت قبل ذلك فى سلطان الفرس أو الروم

---

(١) سورة النساء (٢) ياقوت ٤ : ٣٢٤ (٣) المقدمة ٢٣٢
(٤) الواقدى (٥) ذكر الطرطوشى ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية التى على رأسه

فستوَى لديها أن يحكمها كِسْرَى أو أمير المؤمنين . وربما مالت إلى عُمّال الخلفاء أكثرَ من ميلها إلى عُمّال الروم لِمَا وجدت قبَلهم من وفور العدل والقيام على مراعاة العهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم وحرَّضوا على التشبُّث به ، حتى لقد عزلوا خالد بن الوليد عن الامارة من أجل أنه أراد أن ينقُض الأمان الذى أعطاه أبو عبيدة المعروفُ بأمين الأمة لأهل دِمَشْق ، إذ دخل مدينتهم صلحاً ، بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثالُ هذه الرعاية المنصفة كثيرةٌ فى سِير الخلفاء ، وكانوا إذا أوصَوْا عمالهم باستعمال العدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم « إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوةٌ ، إذ كان عددنا دون عددهم ، وعُدّتنا دون عُدّتهم ، فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضلُ علينا بالقوة ، وإلاّ نُنْصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا » فيظهر لك أنه إنما عمّ الاسلام بما عدل الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم فى زمن الفتح ، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التى ذهبت فضائلُها مثلاً بين الناس ، حتى إن الحاق الكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالاسلام على بعد الديار ، وليس ذلك إلاّ لما يسمعونه من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلعمرى إنه لولا انقلاب خلافة الملّة إلى مُلْك فى يد الأمويين ما بعُد أن يعمّ الاسلام العالَمَ بأسره ، والله تعالى أعلمُ بالغيب ، وله فى قضائه حِكْمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر فى اتساع الفتوح وحفظها فى يد المسلمين ، والاعاجمُ يعلمون ذلك ولكنهم يقولون إنّ الاسلام غلب أمماً لا مدنيةَ عندها ولا نظامَ لملكها فقوِىَ عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ، ولا سيما أنّ

فارس كانت من أضخم الدول سلطاناً ، وأبعدها فى الحكمة أعراقاً ، فلم يصعُب عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غَلَب الروم فى الشام ، وهم بمكان من المدنية لايرام . ولست أقول إلاّ أنه لمّا نشأ الاسلام كانت القياصرة فى ضعف وانحلال ، وكان الفُرْس يمزقهم ظلمُ العمّال . فكان ذلك داعياً إلى انتزاع ملكهم ، ولم ينل الاسلامَ اخفاق فى عهد الخلائف الأولين ومع بمكانهم من صلاح الرأى وحكمة السياسة . فلم تُهْزَم للاسلام رايةٌ فى أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علىّ عليه السلام فذهبت سَذاجة الملة ، وانقلب أمر الأمة من الخلافة إلى المُلْك ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم (الخلافة بعدى ثلاثون سنةً ثم تصير مُلْكا عَضُوضاً) ولله فى خلقه شؤون ، وهو يقدّر الليلَ والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة فى أول يوم من رجب من السنة السابعة والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرَّفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية .

لقائى ولىَّ العهد وحظوتى لديه

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائى ولىَّ العهد ، فإنا لفى بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الاسلام ، إذ دخل علينا البيتَ خادم من خدم الخليفة فتخوَّف الفقيه من شىء لم أدر ماهو ، وكذلك الناسُ يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعِد ، [1] فقال له أبو يوسف سبق وهمى إلى أنك تطلبنى لأمر جَلَل ، قال أَجَلْ إن الأمير

(١) هو أمر معروف فى الحكايات وكتب التاريخ